ملامح الرحلة العلمية اليمانية إلى مكة المكرمة

في القرون الخمسة الهجرية الأولى

إعداد

أ.د. عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع

أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة صنعاء

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله خاتم المرسلين ..

أما بعد ..

فقد كانت – وما تزال – مكة المكرمة مهوى أفئدة الناس منذ أن أمر الله سبحانه نبيه إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام بقوله تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تُشرك بي شيا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السُجُود (جماد ثاني صفر) وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق (رجب صفر) ليشهدوا منافع لهم ويذكرا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (شعبان صفر) ثُم ليقضوا تفثهم وليوفوا نُذُورهم وليطوفوا بالبيت العتيق (رمضان صفر)) [(١)]..

فقد بينت الآيات الكريمة الأسباب التي من أجلها يأتي الناس إلى مكة المكرمة .. ومن أول هذه الأسباب المذكورة (ليشهدوا منافع لهم) .. وصحيح أن الحج والعمرة من المنافع للناس ولكن أن يذكر هذا السبب العام قبل (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) لدليل كاف على أن الله سبحانه يعلم أن عباده تتعدد أغراضهم ، وأهدافهم في تحركاتهم ، وتنقلاتهم حتى مكة المكرمة موطن بيت

(١) سورة الحج ٢٦- ٢٩ .

الله العتيق .. ولهذا جعله الله أول سبب يذكر في مطلع الأسباب ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

وندرج من هذا الاستهلاك العام إلى الحديث الذي يقتضيه عنوان هذه الورقة .. فالرحلة العلمية إحدى المنافع التي يسعى إليها الناس إن لم تكن أجلها بعد التوجه لأداء فريضة الحج .. إلا أن يعلم هو الآخر فريضة ... فالآيات والأحاديث النبوية في فضل العلم ومكانته في الإسلام كثيرة ، فمن الآيات قوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيزُ الحكيمُ﴾ (١) ومن الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم لما ذكر عنده رجلان : أحدهما عابد والآخر عالم فقال : " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم " (٢).

ولكون مكة مركزاً مهما تنافست على حيازته كل القوى المتنفذة في دار الإسلام ، فهو عاصمة دولة عبد الله بن الزبير (ت ربيع أول رجب هـ/ صفر رمضان جماد ثاني م) .. ثم مركزاً مصانا في عهد بني أمية حاولت الخوارج أن تصل إليه لتنطلق منه إلى عاصمة الخلافة الأموية ولكنهم لم يتمكنوا ، وظلت مكة آمنة مستقرة حتى استهل بالقرن الرابع فإذا بالأحداث تتقاذفها تارة تحت السيادة العباسية ، وتارة تحت السيادة العبيدية (الفاطمية) ..

---

(١) سورة آل عمران . آية ١٨.

(٢) أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح – سننالترمذي ٣٢٥ – وانظر : ابن جماعة. تذكرة السامع ٥- ١٥ .

بعد أن اجتاحتها القرامطة عام رجب محرم ربيع ثاني هـ/ شوال ربيع أول رمضان م [١]، وصارت كالكرة بين القوى المتنافسة المحلية أو المرتبطة بالدولتين العباسية والفاطمية [٢]...

ولا يعنينا هذا الصراع السياسي في هذه الورقة إلا أن الملفت للنظر أنه رغم هذه الأحداث التي شهدتها مكة المكرمة عبر القرون فإن الحركة العلمية لم تتوقف فيها على الدوام ، وإن اختلف منسوبها من وقت لآخر لما يسببه الخوف الواقع على الناس من جراء ما يجري فيها من انتهاك لحرمتها من قبل المتنفذين . ومن أبرز ما يمثل الحركة العلمية هو الرحلة العلمية إلى مكة المكرمة ..

فحينما تكون مكة آمنة أحوالها ، مستقرة أوضاعها ، تتوافد عليها قوافل الراحلين من كل مكان ليشهدوا منافع لهم وأهمها (العلم) دراسة ومدارسة .. تعليماً وتعلماً .. تلقياً وإلقاء .. تصنيفاً وإملاءً ..

وأقرب البلدان إلى مكة المكرمة هي اليمن التي تعد مرتبطا ارتباطاً وثيقاً بمكة المكرمة ، فلا يمكن لأهلها أن يتحركوا شمالاً وشرقاً وغرباً عبر مكة المكرمة ، ما لم يكن عبر البحار ، وليست البحار محبذة كثيراً ولا متوافرة إمكانياتها لكل من يريد التحرك إلى تلك الجهات ..

---

(١) القرطبي . صلة تاريخ الطبري ١١٩/١١ وانظر : المصنف . الحياة العلمية ١٥- ١٨ .

(٢) عاشور . مصر من العصور الوسطى ٢١٨ .

وتكمن الأسباب في :

(محرم) الموقع الجغرافي لليمن الواقع جنوب مكة ، ويحيط بها البحر من غربها وجنوبها وشرقها .

(صفر) الحاجة الماسة عند أهل اليمن ليلقي العلوم والمعارف عبر هذا المنفذ المهم الذي يلتقي فيه كل المتطلعين إلى العلم سواء لإلقائه أو لتلقيه ..

(ربيع أول) حاجة بعض العلماء في نشر ما يحمله من علم عبر مركز علمي شهير يتكفل رواده بنشر هذا العلم إلى بقية بلدان دار الإسلام ..

لهذه الأسباب نلحظ عدم توقف الرحلة العلمية من اليمن إلى مكة المكرمة عبر هذه القرون..

ومعارفه وما تلقاه ، وما ألقاه ؛ ولكننا نكتفي بالحديث عن ملامح هذه الرحلة العلمية لنلفت إليها الباحثين فهي مادة خام في حاجة إلى أن يعكف عليها الباحثون الجادون لاستخلاص خوافيها ، واستجلاء مضامينها ، وتحديد عبرها وعظاتها .

وسأكتفي هنا بالإشارة – مجرد الإشارة – إلى عشرة ملامح تتعلق بالراحلين إلى مكة المكرمة:

الملمح الأول : التلاحم العلمي بين العلماء . فالعلماء المسلمون يشكلون لحمة متماسكة كل واحد يكمل الآخر سواء أكان في

الأنـــدلس أم في الـــيمن أم في خراســـان أم في مكـــة المكرمـــة[١] .. وإن اختلفــت مــشاربهم ودارت بيــنهم المجــادلات ، ومجــالس المنــاظرات إلا أن اللحمة العلمية التي بينهم كانت معلماً واضحاً ..

فيحـي بـن عـيس بـن ملامـس (تـوفي بعـد شـوال صـفر ربيـع ثـان هـ/ رمـضان صـفر شـوال محـرم م) الـذي رحـل مـن الـيمن إلى مكـة بغـرض العلـم يقـيم منـاظرة مـع الـشيخ أبـي حامـد الأسـفرايني (ت ربيـع ثـان شـوال وبيـع ثـان هـ/ ربيـع أول محـرم شـوال محـرم م) وكأنهـا كانـت للمنـافرة فـإذا بهـا تنتهـي بالتقـارب والتـواد حتـى أن الأسـفرايني يطلـب مـن ابـن ملامـس أن يـصحبه إلى بغـداد ليتـولى التـدريس في مدرسـته هنـاك ولكـن اعتذر بلطف [٢]..

ومـن أشـهر المنـاظرات الـتي لم تـؤد إلى منـافرة مـا دار بـين يحـي بـن أبـي الخـبر العمرانـي وأحـد علمـاء الأشـاعرة [٣]حيـث نـاظره منـاظرة قويـة وظهــر تفوقــه عليــه إلا أنهمــا لم يتنــافرا ، فكانــا يجلــسان للمناقــشة والمذاكرة في بعض فروع الفقه وأصوله [٤].

---

(١) الشجاع . الحياة العلمية في اليمن ١٢٠ .

(٢) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٩٢ ، ٩٣ . الجندي . السلوك ٢٦٦/١ .

(٣) يسمى محمد بن أحمد العثماني الديباجي (ت ٥٢٧هـ/١١٣٣م) [السبكي . طبقات الشافعية ٦٤/٤] .

(٤) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ١٧٦ ، ١٧٧ . السبكي . طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٦/٧ ، ٢٣٧ . ولد في سنة ٤٨٩هـ وتوفي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م .

الملمح الثاني : الرحلة للمجاورة :

المجاورة : عبر عنها صاحب القاموس المحيط [(١)] بالاعتكاف في المسجد – وهذا كما يبدو معناً خاصاً بينما الذي نعنيه هنا ليس هو الاعتكاف ؛ وإنما هو الإقامة الدائمة ، أو المؤقتة بجوار الكعبة المشرفة ، أو المسجد الحرام ليس بمعنى الاعتكاف الفقهي ..

وقد يشترك في المجاورة من يريد العلم ومن يريد العكوف حول بيت الله الحرام للذكر والتعبد المتمثل في الصلاة والصيام والحج، إلا أن كثيراً من العلماء من أهل اليمن كان يرغب المجاورة في مكة بقصد تلقي العلم . فكان يبدأ بالحج ثم يجاور في مكة وتتفاوت مدة المجاورة بين قصر يصل إلى ثلاث ، طول يزداد خمسة عشر عاماً[(٢)]. وبعضهم كانت تدركه الوفاة في مكة[(٣)]وبعضهم كان يجاور بمكة ثم يعود إلى اليمن ويعود للمجاورة مرة ثانية وثالثة وهكذا [(٤)] ، فقد كان أبو قرة موسى بن طارق اللحجي كثير التردد على مكة [(٥)].

---

(١) الفيروز أبادي ٥٥٤/١ .

(٢) ابن سمرة . الطبقات ٢٣٣ .

(٣) الجندي . السلوك ٣٤١/١ . الفاسي . العقد الثمين ٣٧٣/٦، ٣٧٢ . ابن سمرة . الطبقات ٢١٦، ٢٣٠ .

(٤) ابن سمرة . الطبقات ١٢١، ١٢٢ . الأسنوي . طبقات الشافعية ٣١٨/٣١٧/٢ . الجندي . السلوك ٢٦٦/١ .

(٥) الجندي . السلوك ١- ١٥٩ .

الملمح الثالث : الإقامة بمكة :

والدافع من وراء هذا الملمح يتعدد : فمنهم كم كانت تهفو نفسه إلى أن يعيش عمره في مكة – لأفضليتها – راغباً في أن يموت ويدفن هناك .. فكان يمارس كل نشاطه العلمي في وسط القائمين والوافدين إلى مكة المكرمة ، ومن ثم يصبح أحد أبناء مكة ، وقد يطلق عليه (نزيل مكة [(١)])، وصار العلماء يأتون إلى مكة للأخذ عنه، ومن هؤلاء أبو سعيد المفضل الجندي (ت رجب ربيع أول ربيع أول هـ/ شعبان ربيع ثان رمضان م) المقيم بمكة [(٢)]. والحافظ محمد بن يحي بن أبي عمر العدني (ت شوال صفر ربيع أول هـ/ صفر ربيع أول رمضان م) [(٣)]ومحرز بن سلمة العدني (ت ربيع ثان ربيع أول صفر هـ/ شعبان ربيع ثان شعبان م) [(٤)].

ومنهم من كان يهرب من اليم حينما تحصل فيها فتن أو اضطرابات ؛ فيلجأ إلى الخروج للاستقرار في مكة مفضلاً لها عن غيرها لأفضليتها وحرمتها لا لأمانها فحسب لأنها تكن دائماً مستقرة خالية من الفتن ، ومن هؤلاء وهب بن منبه (ت شوال محرم محرم هـ/ رجب صفر رجب م) حينما هرب من صنعاء إلى مكة خوفاً

---

(١) المختار . الحياة العلمية في اليمن ٤٢٠ . وانظر ترجمة على بن عيسى الحسن السليماني الزبيدي (ت ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م)عند (يحى بن الحسين . طبقات الزيدية الصغرى ١١٨، ١١٩ .إبرهيم بن القاسم . طبقات الزيدية الكبرى٧٧٤/٢ . الفاسي. العقد الثمين ٢١٧/٦ ، ٢١٨) .

(٢) ابن سمرة . الطبقات ٧٠ .

(٣) المصدر نفسه . ٧٢ .

(٤) بامخرمة . تاريخ ثغر عدن ١٩٢/٢ . ابن حجر . تقريب ٢٣١/٢ .

من فتنة الخوارج[١]. وكذلك هروب بعض العلماء أيام الصليحيين إلى مكة ، وقبلها عند نشوب الحروب في اليمن بقيام الدولة الزيدية على يد الهادي يحي بن الحسين عام (ربيع ثان شعبان صفر هـ/ رجب رمضان شعبان م) [٢].

الملمح الرابع : التصنيف :

لم يكن التصنيف عند علماء المسلمين – عادة – هو مجرد شهوة في كتابة الكتب للشهرة والظهور ، بل كان الواحد منهم لا يقدم على التصنيف إلا بعد أن يأخذ الكثير من الاستعداد النفسي والمكاني والزماني [٣].

ومن هذا الاستعداد ما نراه عند بعض العلماء من كان يرغب في الرحلة العلمية إلى مكة المكرمة ليعكف حول الكعبة فيكتب ما يريد كتابته هناك ، فمثلاً ابن ملامس (توفي بعد شوال صفر ربيع ثان هـ/ رمضان صفر شوال محرم م) صنف كتاب (مختصر المزني) مقابلاً للكعبة متعمداً ذلك فانتهى منه بعد أربع سنوات [٤].

الملمح الخامس : الرحلة لتلقي الحديث :

الرحلة لطلب الحديث يعد شرطاً لتلقي الحديث عند بعض

(١) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٥٧. الجندي . السلوك ١٠٩/١- ١١٥ .

(٢) انظر : الشجاع . تاريخ اليمن في الإسلام .

(٣) ابن جماعة . تذكرة السامع والمتكلم ٢٩ ، ٣٠ .

(٤) ابن سمرة . الطبقات ٩١، ٩٢. الجندي . السلوك ٢٦٦/١ . الفاسي . العقد الثمين ٤٤٤/٧. الجنداري . الجامع الوجيز (ق ٦٤/ب) . وانظر : الشجاع . الحياة العلمية ٢٤٠ .

الأئمة ، ولهذا لم يجوز بعض علماء الحديث الأخذ عن طريق الوجادة وتعني أن يقف المحدث على أحاديث مكتوبة لا يرويها الواجد عن روايتها [١].

ولهذا رأينا رحلة العلماء من اليمن إلى مكة وغيرها ليطلبوا الحديث هو الأكثر شيوعاً ، فالإمام عبد الرزاق الصنعاني (ت صفر محرم صفر هـ/ رجب صفر شعبان م) رحل إلى مكة [٢] ورحل كثير غيره ، حتى أن بعض علماء الأندلس رووا الحديث عن بعض أهل اليمن في القرن الرابع الهجري [٣].

وروى البخاري مسلم والترمذي عن القاضي الحافظ محمد بن يحي بن أبي عمر العدني (ت شوال صفر بيع أول هـ/ صفر ربيع أول رمضان م) أيام مجاورته لمكة [٤].. وهذه الرواية عن علماء من أهل اليمن لم تكن داخل اليمن وإنما غالباً في مكة .

وغير هؤلاء كثير ممن رحلوا لطلب الحديث لا يكون مقبولاً إلا إذا تم السماع مباشرة من روايه ، وهؤلاء الرواة كثيراً ما يرتادون مكة ، ومن ثم كانت مقصد أهل اليمن لسماع الحديث . لأن سماع لفظ لشيخ مباشرة هو أرفع طرق الحديث [٥].

---

(١) النواوي . تقريب ٢/٦١ (مع تدريب الراوي) .

(٢) ابن سمرة . الطبقات ٨٣، ٨٤ . الجندس . السلوك ١/١٤٤، ١٤٥ .

(٣) ابن سمرة . الطبقات ٧٠ .

(٤) المصدر نفسه . ٧٢ .

(٥) الطبي . الخلاصة في أصول الحديث ١٠٠ .

وقد أفل الخطيب البغدادي كتاباً مستقلاً بعنوان (الرحلة في طلب الحديث) فيه ثروة معرفية وافرة .

الملمح السادس : الرحلة لتلقي الفقه المذهبي :

هذا الملمح أكثر الملامح اشتهاراً لكثرة رواده ومريديه ، وقد تعددت رحلات فقهاء اليمن إلى مكة بتعدد الفقه ، وتعدد المذاهب الفقهية أيضاً ، ولا يعنينا هنا الحديث عن أطوار الفقه المذهبي في اليمن فهذا له مكان آخر [١] وإنما الذي يعنينا هو الرحلة العلمية إلى مكة لتلقي أو دعم مذهب ما من علماء وردوا إلى مكة المكرمة ، أو هم ممن يجاورون مكة ..

فأعلى مرتبة من طبقات الشافعية في اليمن أبو عمران موسى بن عمران الحداسي السكسكي فقد جالس الشافعي وعد من أصحابه وكان هذا – غالباً – في مكة لأنه تلقي علمه فيها [٢].

وجاء بعده عبد الله بن على من آل زرقان فارتحل إلى مكة حتى كان إماما في المذهب الشافعي [٣].

وكان محمد بن يحي بن سراقة العامري المعافري (ت شوال محرم ربيع ثان هـ/ رمضان محرم شوال محرم م) من كبار الشافعية

(١) الشجاع . الحياة العلمية ٢٢١- ٢٢٥ .

(٢٩) لشيرازي . طبقات الفقهاء ١٠٠ . السبكي . طبقات الكبرى ١/ ٢٧٤ . ابن هداية الله . طبقات الشافعية ٢٩ . ابن سمرة فقهاء اليمن ٨٠ .

(٣٠) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٨١، ٨٢ .

ومتقـــدميهم[١] رحـــل إلى بلـــدان كـــثيرة مـــن بـــلاد الإســـلام ومنهـــا مكـــة[٢] وصـارت لـه مدرسـة في المعـافر (الحجريـة الآن في محافظـة تعـز) ظـل يـدرس فيهـا حتـى تـوفي [٣]. ورغـم المـذهب إلا أنـه كانـت لـه اختيارتـه الفقهية [٤].

ومـــن أشـــهر الفقهـــاء الـــشافعية في الـــيمن القاســـم بـــن محمـــد الجمحـــي (تـوفي بعـد ٣٨٩هــ/ ٩٩٩م) الـذي رحـل إلى مكـة واسـتطاع أن يـأتي معـه أحـد فقهـاء العـراق الـشافعية هـو الحـسين بـن جعفـر بـن محمـد المراغي إلى اليمن بعد لقائهما في مكة [٥]...

وفي القـــرن الخـــامس الهجـــري صـــار لفقهـــاء الـــشافعية رحـــلات كـثيرة مقـصودة إلى مكـة المكرمـة لدراسـة وتلقـي الفقـه الـشافعي مـن كبـار رجـال الفقـه الـشافعي ومـن هـؤلاء الفقهـاء عبـد الملـك بـن أبـي ميـسرة (٤٦٣هـــ/ ١٠٧٠م)[٦] وأبـــو الفتـــوح يحـــي بـــن ملامـــس (تـــوفي ٤٢٠هـــ/ ١٠٢٩م)[٧] مـــع العلـــم أن القـــرن الخـــامس في الـــيمن صـــارت ترفـرف عليـه أعـلام مـذهبين لا ثالـث لهمـا الـشافعي والزيـدي ولا عـبرة

---

(٣١) ابن هداية الله . طبقات الشافعية ١٣١ .

(٣٢) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٨٤ .

(٣٣) السبكي . طبقات الشافعية الكبرى ٨٧/٣ .

(٣٤) ابن هداية الله . طبقات الشافعية ١٣١ . السبكي . طبقات الشافعية الكبرى ٨٧/٣ .

(٣٥) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٨٩ . إسماعيل باشا . هداية العارفين ٣٠٦/١ .

(٣٦) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٩٨ . الجندي . السلوك ٢٧٨/١ .

(٣٧) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٩١ – ٩٣ . الجندي . السلوك ٢٦٦/١ .

(٣٨) انظر : الشجاع . الحياة العلمية في اليمن ٢٤٢ – ٢٥٥ .

للمذهب الإسماعيلي المحمول مع المصليحيين لعدم قبوله عند أهل اليمن ، وعدم وجود فقهاء له .

ورغم أن المذهب الزيدي كان يتغذى فكرياً وفقهياً من العراق والديلم ومبرستان إلا أن الحبل السُري الرابط بين اليمن ومصدر التغذية هو مكة المكرمة (١).

الملمح السابع : تسلم مقاليد الفتوى والتدريس والوظائف :

من طبيعة مكة المكرمة أنها تحتضن كل القادمين إليها وتجعلهم – بحكم موقعها وكبيعة الوافدين إليها – أعضاء مشاركين فاعلين في الحركة ، والنشاط داخل مكة ، ومن أهم هذا النشاط : النشاط العلمي .

فكم من علماء اليمن – بل من طلاب – من وصل مكة وزاد علمه وصار علماً فيها ينادي عليه في المواسم : من أراد الفُتيا فعليه بعطاء(٢) ، ومن أراد السماع العالي في الحديث فعليه بأيوب بن كديش اليماني (٣).

وكان لجلوس علماء أهل اليمن للتدريس والإفتاء ضمن فريق المفتين والمدرسين داخل الحرم مجال واسع .. فموسى بن عجيل – مثلاً – كان يجلس بجوار إمام الحرم يرد على أسئلة ترد عليه فيتصدى لها

---

(١)

(٢) يقصد عطاء بن أبي رباح (ت ١١٥هـ/ ٧٣٣م) [ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) الخررجي . طراز أعلام الزمن . ص٩ . ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٩٧ .

ابن عجيل بإذن من شيخ الحرم[١]. وزيد بن عبد الله اليفاعي – الذي جاور مكة اثنتى عشر سنة – فكانت له إمامة الفتوى والتدريس بمكة [٢].

أما التدريس فكان أعم من الفتوى فكثير من علماء اليمن من كان يأتي إلى مكة ينشر علماً ... أو ليتعلم فصار علماً وانتقل إلى كرسي الدرس يتلقى عنه الطلاب بعض ما يعلمه [٣].

وتولي المناصب في مكة كالقضاء كان أيضاً مشتهراً في أوساط القادمين إلى مكة من أهل اليمن [٤].

الملمح الثامن : تبادل المواقع العلمية :

المقولة المشهورة (ليس في العلم كبير) هو الشعار الذي رفعة علماء المسلمين أمام أنفسهم . فلا يستنكفون عن تلقي ما لا يعلمونه ممن هو دونهم منصباً ، أو مكانة علمية ، أو نسباً ، أو سناً ، حتى أم جماعة من السلف كانوا يستفيدون من طلبتهم [٥]. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال : " لا يزال الرجل عالماً ما تعلم فإذا ترك العلم ، وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون " [٦].

---

(١) الجندي . السلوك . ٤١٥/١، ٤١٦ .

(٢) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ١٢١ ، ١٢٢ – الجندي . السلوك . ٢٦٦/١ – الأسنوي . طبقات الشافعية . ٣١٧/٢ ، ٣١٨ .

(٣) انظر : المصنف . الحياة العلمية في الحجاز – المختار . الحياة العلمية في اليمن . ٤١٧ وما بعدها .

(٤) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٥٨ منهم طاووس بن كيسان الذي تولى هو وابنه القضاء بمكة .

(٥) ابن جماعة . تذكرة السامع . ٢٨ . ٢٩ .

(٦) المصدر نفسه . ٢٨ .

ولقد مارس العلماء هذا الملمح عملياً بشكل يثير الإعجاب / فأنت ترى عالماً ذا مكانة مرموقة في علمه يتحلق حوله ويرحل إليه الطلاب .. وفجأة يتحول هذا المُتحلق حوله والموحول إليه راحلاً إلى غيره، أو قد انضم إلى حلقة علم يتلقي عن غيره علماً : إما أنه لم يعرفه . وإما ليستزيد منه . أو ليتحقق عن شيء من العلم الذي يتقنه الجالس إليه .

فالإمام عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٧م) المرحول إليه ، يرحل هو الآخر ليتلقى العلم عن علماء آخرين في مكة المكرمة [(١)].

وعبد الله آل زرقان كان يرحل إلى مكة ليأخذ عن علمائها رغم أنه كان عالماً في فقه الإمام الشافعي ، ومع هذا لم يتردد عن أن يجلس إلى أبي زيد المروزي (ت ٣٧١هـ/ ٩٨١م) ليسمع منه صحيح البخاري[(٢)]، وابن سراقة العامري (ت ٤١٠هـ/ ١٠١٩م) طاف البلدان، ومنها مكة المكرمة ليتلقي العلوم والمعارف من المتمرسين فيها [(٣)].

وبما أننا لسنا في مقام الحصر والاستقصاء وإنما مقام الإشارة والإيماء فإننا نأمل من الباحثين الشباب أن يلتقوا هذه الخطوط ويواصلوا متابعتها إلى منتهاها .

---

(١) إسماعيل باشا . هدية العارفين ١/٥٦٦ – بروكلمان . تاريخ الأدب العربي ٤/١١ – سزكين . تاريخ التراث العربي ١/١٤٤ .

(٢) الشيرازي . طبقات الفقهاء ٩٤، ١١٥ – ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٨١، ٨٢ – وانظر : الشجاع . الحياة العلمية ٢١٤، ٢٣٠ .

(٣) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٨٤ .

الملمح التاسع : جمع الكتب أو الاطلاع على ما يوجد في سوق الوراقة بمكة .

بما أن مكة المكرمة مركزا علمياً عالمياً فقد كانت الكتب المنشورة في أقاصي بلاد الإسلام لابد لها من الوصول إلى هذا المركز العلمي العالمي . إما عن طريق مؤلفيها الذين كانوا يرغبون في وضع ما ألفوه بين أيدي العلماء المجتمعين في هذه البقعة المباركة ليسزيدوا علماً ، أو لينشروه في الآفاق وأما عن طريق غير المؤلفين فهناك من أجيز بتدريس هذه الكتب فصار كلفاً بها وحريصاً عليها ينشرها كما لو كان ينشر ما ألفه هو نفسه ، فقد صار من رواة هذه الكتب ، ولهذا فهو يتولى نشرها بين المتعلمين وأشهر مكان للنشر هو مكة المكرمة[1] .. وإما عن طريق تجارة الوراقة .. فالوراقون (بائعوا الكتب وناشروها) الذين يبحثون عن أرزاقهم من خلال مهنة الوراقة لا يترددون في جلب الكتب من أقصى الشرق وأقصى الغرب إلى مكة لعلمهم الأكيد أنهم في مركز دار الإسلام وهو مهوى أفئدة المسلمين ، ومن ثم فسوق الكيت فيه تكون رائجة في كل الأوقات .

لذلك كله فإن من كان يريد البحث عن كتاب فعليه بمكة ، فهناك إما سيجده ويقتنيه ، وإما يُل على مكانه فيرسل إلى من يأتيه به . اليمن – أقرب البلدان إلى مكة – كانت تتزود مما تحتاجه من الكتب من مكة المكرمة .

---

(١) المصدر نفسه ٧٤ فالعافري يروي كتاب (المنتقي في السنن) [ابن سمرة . الطبقات ٨٠، ٨٣] .

وكانت الرحلة اليمانية إلى مكة لهذا الهدف تم إما من قبل الوراقين من أهل اليمن للتجارة ، وإما من قبل أهل العلم أنفسهم الذين كانوا يطمحون في الحصول على ما يجدونه من كتب يهتمون بها ....

ومما يلفت النظر أن الهمداني (توفي في حدود ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) كان يحصل على الكتب عن طريق والده ، فقد كانت له رحلات عدة إلى مكة ، ولم يكن عالماً وإنما يجلب الكتب لوالده ليستفيد منها [١].

ومعروف أن من طرق التعليم والتعلم هو السماع والإجازة[٢] ومن مخرجاتها تلقي كتب المؤلفين أو عمن رواها فيتلقاها العالم من أهل اليمن فيقوم بروايته مع اقتنائه لنسخته التي قابلها مع من رواه عنه وحصل على إجازة منه ليروي عنه ما سمعه ، أو ما قرأه .

وكان أبو قرة اللحجي (ت ٢٠٣هـ/ ٨١٨م) يروي كتاب الموطأ للإمام مالك [٣]... وهذا الصنف الأمثلة عليه كثيرة .

وجاءت كتب المذاهب إلى اليمن من مكة المكرمة ..فكتب مذهب الإمام مالك مثلاً تلقاها أهل اليمن عن أبي سعيد المفضل الجندي نزيل مكة[٤] ، وكذلك كتب الشافعية انتشرت في اليمن عبر

---

(١) انظر : الشجاع . نكبة الهمداني .

(٢) اظر : الشجاع . الحياة العلمية ٨١- ٨٩ .

(٣) ابن فرحون . الديباج المذهب ٣٤٢ – ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٦٩ – الجندي . السلوك ٣٧ خ .

(٤) ابن عطية . فهرس ابن عطية ١٣٢ .

مركز مكة المكرمة[1] ، حتى كتب العقائد والفلسفة وغيرها من العلوم التطبيقية ، حازها أهل اليمن عن طريق مكة المكرمة كما أشرنا إلى الهمداني الذي كان بارعاً في الفلسفة والعلوم التطبيقية والفلكية ، وقد حصل عليها من خلال رحلات أبيه إلى مكة .

الملمح العاشر : أحوال الراحلين المعيشية والاجتماعية .

هذا الملمح طريف وقمين بالدراسة والبحث .. أنه يعالج أحوالاً خاصة حيث يدخل إلى بيوت هؤلاء الراحلين للعلم إلى مكة .

فهذا الذي أقام بمكة مجاورا عشر سنوات ، واثنتي عشر سنة وأكثر أو أقل ... ما هي مصادر رزقه ؟ هل كان من الأغنياء فكان يصرف على نفسه طوال هذا الوقت ؟ وهل كان يحتفظ بالمال لديه ليقتطع منه جزءاً كلما احتاج ؟ أم كان يُشغل هذا المال في تجارة؟ أم كان من الفقراء يقتات على ما يحصله من أجرة لما يقوم به من أعمال في مكة ؟ أم كان يتحصل على معونات من ريع الأوقاف الموقوفة على الحرم والذي كان جزء منه مرصوداً للدارسين فيه ؟ أم كان للأغنياء من أهل مكة نصيب في المشاركة لكفاية المحتاجين من الدارسين والعلماء من خلال عطاياهم الظاهرة والخفية ؟ أم أن الدولة – رسمياً وشخصياً – كانت لها عطايا تقدمها لمن يحتاج في مكة ؟ أم هناك جرايات تقدم من الدولة لمن يحتاج أو لمن يقوم بالتدريس ؟

(١) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ١٠١، ١١١، ١١٨ .

وكثير من الأسئلة تتعلق بإقامة هؤلاء بمكة .. هل كانت لهم مساكن مبنية تابعة للحرم ؟ أم كانوا يستأجرون ؟ وهذا ألا يحتاج أموالاً نقدية لسد هذه الحاجة ؟ ثم إقامتهم هذه في بيوت مستأجرة أو غيرها .. هل كانوا يسكنونها مع أهاليهم ؟ وهل كانوا يأتون بأزواجهم وأولادهم ؟ أم كانوا يتعاطون التسري بالإماء ؟ أم كانوا يتزوجون في مكة .. ؟ وإذا تزوجوا في مكة هل كانت زوجاتهم – بعد انتهاء مجاورتهم في رحلتهم العلمية – يرحلن معهم إلى اليمن ؟ أم كانوا تيركونهن ؟ وماذا عن أولادهم ؟ هل يصطحبونهم عند قفولهم إلى اليمن ؟ أم يتركونهم مع أمهاتهم ؟

أسئلة كثيرة تثار تحت التعمق والدراسة للوصول إلى إجابة شبه متكاملة عنها .

وستوجد جوانب طريفة اجتماعياً لعلها تضفي على الدراسة بهجة وسروراً وغرابة أيضاً .. مثل المواقف التي تعرض إليها الراحلون في رحلاتهم إلى مكة .. من سرقة ، أو مرض ، أو مواقف محرجة . الخ ..

وليس بوسعنا أن هنا أن نتوسع في البحث وإنما نشير إلى وجود إجابات عن بعض هذه الأسئلة ...

فهناك دلائل عن وجود دور اشتراها بعض العلماء الأثرياء وأوقفوها لمن يرد إلى مكة[1] ، وهناك إشارات كثيرة تدل على أن من

(١) الذهبي . السير ٣٠/١٦ ، ٣٥ – الخطيب البغدادي ز تاريخ بغداد ٣٨٣/٨ – بامخرمة . قلادة النحر =

كان يتعفف عن أن يأخذ من غيره يلجأ إلى امتهان المهن الصغيرة كالنسخ ، أو حمل أشياء مقابل أجر ، أو أي عمل آخر [١]...

فالرحالون اليمانيون كانت لهم مواقف نجبت على بعض تلك التساؤلات .. فمنهم من كان غنياً ينفق على نفسه[٢] .. ومنهم من كان يأخذ أهله وأولاده معه[٣] .. ومنهم من كان يتزوج بمكة ، وقد وردت بعض الروايات بأن بعضهم تزوج عددا من النساء وصل إلى ستين امرأة في مدة مكثه في مكة[٤] ، وقد تكون المبالغة فارضة نفسها على مثل هذه الروايات[٥] لكن الباحث عادة سيجد مادة علمية لا بأس بها لاستكمال دراسته ..

ونلخص إلى أن هناك ملامح كثيرة يمكن اقتباسها من مظانها وغير مظانها ، منها ما ذكرناه في الصفحات السابقة ، ومنها ما يحضرني الآن إضافة إلى ما سبق :

=

١١٦/٢ حيث قام الفقيه دعج بن أحمد البغدادي (ت ٣٥١هـ/٩٦٢م) بشراء دار العباسة وأوقفها على حملة العلم .

(١) انظر : المصنف . الحياة العلمية في الحجاز ٢٠٩- ٢٢١ .

(٢) مثل الفقيه المعروف سيف السنه (الجندي . السلوك ٣٢١/١) وزيد بن عبد الله اليفاعي الذي كانت ترسل إليه الأموال من مزاره كان يمتلكها في اليمن (ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ١٢١- الجندي . السلوك ٢٦٦/١) .

(٣) مثل يحي بن الخير العمراني (ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ١٨٧ – الجندي . السلوك ٣٣٧/١) .

(٤) ابن ملامس هو من روي عنه هذا (ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ٩١ ، ٩٢ – الجندي . السلوك ٢٣٠/١- اليافعي . مرآة الجنان ٢٩/٣ – الأهدل . تحفة الزمن ١٨٢) .

(٥) انظر : المختار . الحياة العلمية في اليمن ٤٤٦ .

ملمــح مكــة محطــة (ترنزيــت) للانتقــال إلى مــصادر أخــري مــن بلاد الإسلام ..

وملمح ما لاقاه المرتحلون من مواقف في طريق رحلاتهم .

وملمح حياتهم العائلية في البلدان القادمين منها وهكذا ...

نسأل الله سبحانه أن يسدد خطانا ، ويلهمنا رشدنا ...

والله ولي التوفيق ، ،



المصادر والمراجع

- إبراهيم بن القاسم بن المؤيد . صارم الدين (توفي نحو ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) .

١- طبقات الزيدية الكبرى . تسمى (نسمات الأسحار في طبقات رواة كتب الفقه والآثار .. وبطبقات الزيدية رواة الفقه والآثار). مخطوطة . مصورة عن مخطوطة القاضي حسين السياغي . صنعاء . (احتفظ بصورة منها).

- إسماعيل باشا البابانى. إسماعيل بن محمد أمين (ت ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) .

٢- هدية العارفين أسماء المؤلفين . وكالة المعارف . استنبول . ١٩٨١م ، أعادت تصويره دار العلوم الحديثة . بيروت .

- السنوي . جمال الدين عبد الرحيم (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) .

٣- طبقات الشافعية . تحقيق / كمال يوسف الحوت . ط أولى . ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م . دار المتب العلمية . بيروت .

- الأهدل . بدر الدين الحسين بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) .

٤- تحفة الزمن في تاريخ اليمن . تحقيق / عبد الله محمد الحبشي . ط أولى . ١٩٨٦م/ ١٤٠٧م . دار التنوير للطباعة . بيروت .

- بامخرمة . أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م) .

٥- تاريخ ثغر عدن . ط ثانية . ١٩٩١م . مكتبة مدبولي . القاهرة .

٦- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر . الجزء الثاني . تحقيق / عبد الرحمن محمد جيلان . رسالة ماجستير غير منشورة ، صادرة عن قسم التاريخ ، كلية الآداب . جامعة صنعاء ٢٠٠١م .

- بروكلمان كارل .

٧- تاريخ الأدب العربي . نقله إلى العربية / د . عبد الحليم النجار . دار المعارف . ١٩٧٧م. القاهرة .

- الترمذي . أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) .

٨- جامع الترمذي . إشراف ومراجعة / صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ ز ط أولى . ١٩٩٩م . دار السلام . الرياض .

- ابن جماعة . بدر الدين بن جماعة الكناني (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) .

٩- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان .

- الجنداري . أحمد بن عبد الله (ت ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م).

١٠- جامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز . (مخطوطة بالمكتبة الغربية ، الجامع الكبير، خ ١٣٣٢هـ في ٢٢٢ق . رقم ٦٥ . تاريخ).

- الجندي . أبو عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) .

١١- السلوك في طبقات العلماء والملوك . تحقيق / محمد بن علي الأكوع . ط أولى . ١٩٩٣م . مكتبة الإرشاد . صنعاء .

• ابن حجر العسقلاني . شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) .

١٢- تقريب التهذيب . تحقيق / عبد الوهاب عبد اللطيف . ط الثانية . ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م . المكتبة العلمية . المدينة المنورة .

• الخرزجي . أبو الحسن علي بن الحسين بن أبي بكر (ت ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م) .

١٣- طراز أعلام الزمن . مخطوطة .. لدي صورة منها .

• الخطيب البغدادي . أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) .

١٤- تاريخ مدينة بغداد أو مدينة السلام . دار الكتاب العربي . بيروت .

١٥- الرحلة في طلب الحديث . تحقيق / نور الدين عتر . ط أولى . ١٩٧٥م . دار الكتب العلمية . بيروت .

• الزاوي . الطاهر أحمد .

١٦- ترتيب القاموس المحيط المصباح المنير وأساس البلاغة . ط الثانية . ١٩٧٠م . عيسى الحلبي . القاهرة .

• السبكي . عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) .

١٧- طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق / د . عبد الفتاح الحلوود

محمود محمد الطناحي . ط الثانية .١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م . مطبعة هجر . القاهرة .

- سزكين . فؤاد .

١٨- تاريخ التراث العربي . تعريب / د . محمود فهمي حجازي وفهمي أبو الفضل . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٧٧م القاهرة .

- ابن سمرة الجعدي . عمر بن علي (توفي بعد حوالي ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) .

١٩- طبقات فقهاء اليمن . تحقيق / فؤاد سيد . مطبعة السنه المحمدية .١٩٥٧ م . القاهرة .

- السيوطي . جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) .

٢٠- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي . تحقيق / عبد الوهاب عبد اللطيف . ط الثانية . ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م . المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

- الشجاع . عبد الرحمن عبد الواحد محمد .

٢١- تاريخ اليمن في الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري . ط الثالثة . ١٩٩٩م . دار الفكر المعاصر . صنعاء .

٢٢- الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة . وزارة الثقافة والسياحة . ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م . صنعاء . اليمن .

٢٣- نكبة الهمداني . مجلة كلية الآداب . عدد (١٦). سنة ١٩٩٤م . جامعة صنعاء .

- الشيرازي . أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف (ت ٤٦٧هـ/ ١٠٨٣م) .

٢٤- طبقات الفقهاء . تحقيق / إحسان عباس . ط الثانية . ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م . دار الرائد العربي . بيروت .

- الطيبي . الحسين بن عبد الله (ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) .

٢٥- الخلاصة في أصول الحديث . تحقيق / صبحي السامرائي . نشر رئاسة ديوان الأوقاف . ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م . مطبعة الإرشاد . بغداد .

- عاشور . سعيد عبد الفتاح .

٢٦- مصر في العصور الوسطى . دار النهضة العربية ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م . القاهرة .

- ابن عطية . أبو محمد عبد الحق بن عطية المحابي الأندلسي (ت ٥٤١هـ/ ١١٤٦م) .

٢٧- فهرس ابن عطية . تحقيق / محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي . ط الثانية . ١٩٨٣م . دار ألف الإسلامي . بيروت .

- الفاسي . تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م) .

٢٨- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين . تحقيق / فؤاد سيد . ط الثانية . ١٩٨٦م . مؤسسة الرسالة . بيروت .

- ابن فرحون . إبراهيم بن علي بن محمد المالكي (ت ٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م) .

٢٩- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب . تحقيق / د . محمد الأحمدي أبو النور . مكتبة دار التراث . القاهرة .

• الفيروز أبادي . محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٤م) .

٣٠- القاموس المحيط . (انظر : الراوي) .

• القرطبي . عريب بن سعيد (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م) .

٣١- صلة تاريخ الطبري . تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم . روائع التراث العربي . بيروت (د . ت) .

• المختار . عبد الرحمن أحمد المختار .

٣٢- الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين . رسالة دكتوراة غير منشورة . مقدمة إلى قسم التاريخ . كلية الآداب . جامعة صنعاء . (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م) .

• المصنف . عبد الرحمن أحمد حفظ الدين المصنف .

٣٣- الحياة العلمية في الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين . رسالة دكتوراة غير منشورة . مقدمة إلى قسم التاريخ . كلية الآداب . جامعة صنعاء . (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) .

• النواوي . أبو زكريا يحي بن شرف الدين (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م).

٣٤- تقريب . (انظر : السيوطي) .

• ابن هداية الله . أبو بكر بن هداية الله الحسنى (ت ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م) .

٣٥- طبقات الشافعية . تصحيح ومراجعة / خليل الميسي . دار القلم . بيروت .

- اليافعي . أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (ت ٦٧٨هـ/ ١٣٦٦م) .

٣٦- مرآة الجنان وعبرة اليقظان . ط الأولى . ١٩٩٧ م دار الكتب العلمية . بيروت .

- يحي بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م) .

٣٧ – طبقات الزيدية الصغرى . مخطوطة مصورة عن صورة في المكتبة المركزية . جامعة صنعاء . (لدي صورة منها) .